... ما أَحْسَنَ الموْتَ!!...

عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجتُ يوم الخندق أقفوا آثار الناس ، قالت: فسمعتُ وئيد الأرض ورائي[1] ، فالتفتُّ فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنَّه ، قالت: فجلستُ إلىٰ الأرض ، فمرّ سعدٌ وعليه درعٌ من حديدٍ قد خرجت منها أطرافه ، فأنا أتخوّف علىٰ أطراف سعد ، قالت: وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم ، قالت: فمرّ وهو يرتجز ويقول:

مهـلاً قليـلاً يلحـق الهيجـا جَمَـلْ مـا أحسـن المـوت إذا حـلَّ الأجـل

قالت: فقمتُ فاقتحمت حديقةً ، فإذا فيها نفرٌ من المسلمين ، وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفيهم رجلٌ عليه سَبْغَةٌ له[2].

فقال عمر رضي الله عنه: ما جاء بكِ ، لعمري والله إنكِ لجريئة ، وما يُؤمنُكِ أن يكون بلاءٌ أو يكون تحوّز[3]؟

قالت: فما زال يلومُني حتىٰ تمنّيتُ أن الأرض انشقّت لي ساعتئذٍ فدخلتُ فيها.

قالت: فرفع الرجل السّبغة عن وجهه ، فإذا طلحة بن عبيد الله ، فقال: يا عمر ، ويحك إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التحوّز أو الفرار إلاّ إلىٰ الله عز وجل.

---

(١) أي: حسّ الأرض.

(٢) أي: عليه مغفر.

(٣) أي: التنحّي.

قالت: ويرمي سعداً رجلٌ من المشركين من قريش يُقال له ابن العَرِقَة بسهم له ، فقال له: خُذها وأنا ابن العرقة ، فأصاب أكحله فقطعه ، فدعا الله عز وجل سعدٌ ، فقال: اللهم لا تُمتني حتىٰ تُقرّ عيني من قريظة ، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية.

ولما علم الرسول ﷺ بجراح سعد ، قال: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتىٰ أعودَهُ من قريب».

وبالفعل ، كان الرسول ﷺ إذا مرّ به يقول: «كيف أمسيت؟» وإذا أصبح قال: «كيف أصبحت؟»[1].

أجل يا أبا الزهراء يا محمد!!

ما هذا التفاني ، وما هذا الحبّ العجيب ، وما هذه المودّة يا حبيب الله سبحانه؟!

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ ... وأنه خير خلق الله كلّهمِ
وكل آيٍ أتىٰ الرسل الكرام بها ... فإنما اتّصلتْ من نوره بهمِ
فإنه شمسُ فضلٍ هم كواكبها ... يُظهرن أنوارها للناس في الظُّلمِ

* * *

(١) المسند: ٦/ ١٤١ ، سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٥٨ ، تاريخ الطبري: ٢/ ٢٧٥.